

مكابدات الشجر

٢٠٠١-١٩٩١



قصيدة العراق

تلوبُ الطيورُ :
الجبالُ ، الجبالُ
الجبالُ تُورِّقُنِي
وتلفُ بأغصانها جرحَ روحي ،
الجبالُ صبايا ،
تجزُّ ضفائرَها الطائراتُ
فأجمعُ عنها شظايا القنابلِ
أمسحُ وجنتها ،
فتسيلُ الغيومُ على مهلها .
فوقَ وردِ الصباحِ .
والجبالُ حيارى
الجبالُ التي شرَّدتني
الجبالُ التي هَجرتني
وأهجرُها . .
وأحنُّ إليها ،

فتبكي جروحي
وأنسى الذي كان ما بيننا
من ملامم ..
والجبالُ تلوبُ :
العراقُ ،
العراقُ ،
العراقُ متاحفُ نخلٍ ،
مرايا ،
وعاجُ
وأروقةٌ من لجينٍ ،
وأزمنةٌ من دم ،
وأكفٌ تدقُّ رتاجَ العصورِ
فتنهضُ إنساً وجاناً . . .
وتعدو الفيالقُ
تعدو البيارقُ ،
تعدو الخيولُ . .
..
والعراقُ الرّوى ،

والمدى ،
والأمان ،
العراقُ الأمانى
العراقُ حديقةٌ روحى
تضمُّ إليها غيوماً ، وبرقاً ،
وأزمنةً من لظى
وجداولَ شهد تشقُّ أكفَّ الترابِ ..
والعراقُ عباءةٌ أمى ،
وثوبُ العذارى ،
اللواتى يمتنَّ على السفحِ
من ظمأً واغترابٍ ..
.....
- يا قمرَ الجبالِ ..
عرجُ على السفوحِ ..
فوجهك الأبهى ..
يطلعُ فى الجروحِ .
- يا قمرَ المنفى ..
عرجُ على الحقولِ ..

فوجهك الأبهى ..
يولد في البذور .

.....

فيا شجراً لا يهادنُ ،
يا شجراً يستفزُّ الرياحَ
لماذا فتحتَ النوافذَ
والشمسُ داكنةٌ

والعيونُ قمئتهُ ؟ ..

لماذا توضأتَ بالدمِ ،
بالأمنياتِ ،

ودهرُك أعجزُ من باقلِ
والعدوُّ يهدهُ صبيانهُ

والرياحُ تسيرُ بما يشتهي القتلهُ ؟ .

أنتَ علّمتني أن أموتَ

كما ينبغي

وألبي الحياةَ

إذا انبلجتُ قبلهُ ..

فلماذا ذهبتَ وخليتني ؟

ولماذا عبّرتَ إلى جهةٍ أنا أجهلُها؟ .
في الطريقِ إلى مكّةٍ عيّرتني القوافلُ
أنْ سأموتَ بلا كفنٍ ،
أو سدورٍ .
وفي المغربِ العربيِّ وجدتُ ثيابي
معلّقةً فوق صاريةٍ ،
وثيابي على جبلِ الشيخِ في الشامِ
منشورةً ،
فوق جبلٍ يخطُّ حدودَ هويةِ أهلي
بين البنفسجِ والنارِ ،
بين الممدى والقَتيلِ .
هناكُ وجدتُكَ تبتاعُ خبزاً لوردِ العراقِ .
وتنحتُ صخرًا لأحلامِهِ
نسيَ التَّيْلُ ما كانَ ،
أفةً هذا الزمانِ التذكُّرُ
أفتهُ الموتُ فوق حجارةٍ أمسٍ تلبَّدَ
تلكَ الجبالُ ،
الجبالُ ،

الجبالُ طيورٌ تكايدُ .
مناف .
حصونُ ،
حقولُ من الزَّعْتِ المرِّ ،
نعناعُها كَرَمُ الأرضِ ،
شحَّتْها ،
قمرُ الأرضِ ،
لوعتُها
والجبالُ الجحيمُ ،
الجحيمُ النَّعِيمُ ،
الجبالُ سياطُ تغالبُ .
تهادِنِي ،
لا أهادُنُ
والجبالُ المناراتُ :
خضراءُ ، حمراءُ ، سود
والجبالُ :
القبابُ ،
الوعولُ ،

المرايا .
مراكبُ تسرحُ في الغيمِ ،
تبحثُ عن لوعةٍ ،
ولظىٍ يسعانِ هواها .
تؤرجحُني . .
أتهاوى إلى القاعِ ،
أصعدُ عبرَ الجذوعِ ،
أرى ذمماً تُشتري
وشعوباً تباعُ .
وأبصرُ تاريخَ حبي على السنديانِ
ممالكَ أهلي وتيجانهم
ونصارَ خطاهم وأزمانهم
فتلوبُ الكهوفُ
وتشعلُ أنيابَ فيلٍ تمرّدَ .
أبرهةٌ لا ينامُ ،
يفتّشُ عن بابِ مكةَ بين السفوحِ . .
والجبالُ ملاعبُ أهلي .
أحسُّ ديبَ سواهم على قمّةٍ ،

هي وردةٌ رُوحِي
على ربوةٍ هي جرحُ الضَّفافِ
التي طَهَّرْتَنِي ،
على نبعِ ماءٍ .
تغوصُ حمامةٌ قلبي بأغواره
فأفوحُ شذَى . .
أتأرجحُ ما بين ليلٍ وفجرٍ ،
وعطرٍ ووجدٍ ،
وما بين نارٍ ،
ونارٍ .
وفي لحظةِ الشوقِ ،
ما بين شعبينِ ،
في شجرِ الجوزِ ،
في جذعِ لوزٍ يخبئُ تاريخَ آشورَ ،
في جنباتِ الصنوبرِ
أو عنفوانِ الشقائقِ ،
يلتاعُ جليجامشُ ، السرُّ يفتأُ
عينَ الخطيئةِ ،

تحتدمُ الأرضُ في قاعِ وادي العقيقِ ،
الحُدَاةُ ،
الحُدَاةُ ،
الحُدَاةُ يصيحونَ بالمُدْجِينِ الذينَ
يجزؤونَ شعرَ الغزالِ ،
الغزالُ مُسجى على قاعِ رملِ الخليجِ ..

.....

- يا قمرَ البستانِ ..
عَرَّجْ على الشَّرْفَةِ ..
فوجهكَ الفتَّانُ ..
يموتُ في سَعْفِهِ ..
يا قمرَ الجبالِ ..
عَرَّجْ على السفوحِ ..
فوجهكَ الفتَّانُ ..
يولدُ في الجروحِ ..

.....

وشريفُهُم في الليلِ ،
يضربُ كَفَّهُ

ماذا سنفعلُ دوماً تترّ؟
همو وعدوا سيأتون العشيّة . .
والعلقميُّ إذا تأخّر ،
من سنعطيه مفاتيحِ القضيّة . .
يختصُّ تاريخُ الرّماحِ
على ظهورِ علوجهم
ترتجُ أحذيةُ ،
التتارِ ،
على سفوحِ جباههم
يا ويلَ ماضيهم من الآتي .
وآتيهم من الأصنامِ والأزلامِ ،
والزّمنِ المُضرّجِ بالأسى ،
ومجازرِ التفّاحِ ،
هذا البحرُ غربانُ ،
وأوحالُ ،
ودمّ . .
ومراكبُ تهوي ،
وأخرى تحتدم .

والبحرُ أهدى الفجرَ قُبْعَةً ،
وراحُ .
لم يستبِحَ وردَ الطفولةِ ،
بانبلاجِ الأفقِ كان البحرُ يؤمنُ
بالخطيئةِ ،
بالرياحُ . .
باللّعةِ الكبرى ،
وبالوطنِ المباحُ . .
أبوابُ حيفا مُدَّ خرجنا .
ظَلَّتْ مَفْتَحَةً لِأَسْرَابِ النَّمِيمَةِ .
سِفْرُ الجَرِيمَةِ أَيْنَعَتْ أَغْصَانُهُ ،
وعناكبُ الديجورِ ،
تَحْجُبُ فِي الرَّبِّي وَرَدَ الصَّبَاحُ . .
ماذا ستعطيك الحياةُ ؟ . .
النارُ أَشْعَلَتْ السَّنَابِلَ
في الحقولِ ،
ونارُهم غرأُ ،
لا تؤذي القتيلَ ،

حِضَارَةٌ زَهْرَاءُ ،
مِن دِمْنَا أَكْفَهُمُو تَسِيلُ ،
فَلَا تَمُتْ فِي الْقَيْظِ ،
لَا مَاءً ،
.....
وَلَا خَبْرٌ ،
وَلَا قَمْرٌ ظَلِيلٌ ..
أَعْطَتِكَ هَذِي السَّنْدِيَانَةُ ذَاتَهَا ،
وَهَبَّتِكَ عَرْشًا يَسْتَرِيحُ ،
وَلَا يَرِيحُ ،
فَلَا تَبِعْ تَاجَ الطَّفُولَةِ ،
فَالْجِبَالُ هِيَ الْجِبَالُ ،
هِيَ الْجِبَالُ .
وَشَجِيرَةُ الرِّمَانِ أَلْقَتْ زَهْرَهَا
فَوْقَ الرَّمَالِ .
مَاءٌ يَسِيلُ مِنَ الْغُصُونِ ،
إِلَى يَمَامِ الرُّوحِ ،
أَجْنَحَةٌ تَحْطُّ عَلَى ذَرَى الْقَلْبِ ،

الجبالُ منافذُ للبحرِ ،
ذاك البحرُ كان أذايَ ،
كان مظلةً سوداءَ ،
كان البحرُ مرسالي إلى قيظِ الجزيرة . .
- يا قمرَ المنفى ،
عَرِّجْ على البيوتِ .
فوجهك الأبهى . .
ياقوتةٌ تموتُ . .
- يا قمرَ الصحراءِ . .
عَرِّجْ على الواحاتِ . .
فوجهك الوضياءِ . .
يذبلُ في الفلاةِ .
...
أهذا زمانُ الرجوعِ ؟
إذنُ .
أنتَ تكتبُهُ ،
وتهادنُ سرّاً يمزقنا ،
لا نبوحُ بهِ .

نكتوي ،
لا نبوحُ بهِ ،
ونسيرُ إلى حيثُ تهوى المسيرَ ،
إلى حيث ریح الصِّبا غصَّةً
والمناديلُ أمانةً ،
والمنايا ندورُ . .

الأسوار

أتلوّى خلفَ تلولِ الحزنِ ،
وأنسى هواكُ . .
أتضرّعُ تحتَ المطرِ السّفاحِ ،
لأنسى هواكُ . .
إن أغمضَ عينيَّ ،
أرَ عينيكَ ،
تجولانِ بأخرِ هذا الليلِ
وأبصرَ وردةَ حبّكَ ،
تندى في شفّتيَّ
وأرفضُ أن أنساكُ . . .

*

قالتُ ليلكةُ إذ مرّتُ بالغلزانِ :
سأرجعُ يوماً .

قال الفجرُ :

سأصبحُ وردةَ حبِّكِ

إذُ أرحلُ عبرَ مياهِ الغربِ ،

كلَّ ليالي الضَّيِّمِ وأنتِ معي . .

يا هذي الخارطةُ الكبرى

مزقتُ سدولَ الكابوسِ الأولِ

والرابعِ ،

والعاشرُ ،

كان دمي المتلطِّخُ بالاوحالِ نقياً ،

يصرخُ ،

ثم يغورُ بقلبِ الليلِ . .

أهذا ليلاً يا وطني ؟ ،

ما أطولهُ . .

ما أسودَ خصلاتِ ذوائبهِ . .

ما أصبرهُ .

..

مرّت قاطرةٌ أخرى .

مرّ هواك جريحاً ،
لكنّ نضر العينين . .
أشعلت بكفي قنديلين ،
فرحتُ أضوي للغرباءِ
طريقَ الحلم .
في زمنِ الظلمِ أتيتك ،
يطلعُ من كلِّ جراحٍ في قلبي
عنقودُ حنظلٍ .
يكبرُ فيّ السجنُ .
تمتدُّ الصحراءُ الكبرى
ويصيرُ الحزنُ .
رايتنا من نابلسَ
الى الساقيةِ الحمرا
أقطعُ في الليلِ أصابعَ كفيّ ،
أنثرُها فوقَ موائدِ صبرك ،
أصرخُ :
من يتسلّى .

أختصرُ الليلَ وأتمو تحتَ مظلةِ حبِّكَ
زهرةَ صَبَّارٍ .

أختصرُ الحزنَ وأمضي في صحراءِ هواك
شجيرةَ نارٍ .

تسقطُ في وهدةِ روحي
جمرةُ غيظِكَ ،

ينهضُ وجهُكَ مثلَ السيفِ البتَّارِ

أتجمَعُ تحتَ سمائكِ غيماً أخضرَ
أمطُرُ ،

أمطُرُ ،

حتى تخضلَّ الفلواتُ ،

وأسكرُ ،

حتى تشتعلَ الغاباتُ ،

وأكبو ،

أكبو .

أه .

مَنْ يتسلَّقُ هذا الحلمَ الجبليَّ معي

من يتبعني .
أتذكر في هذا اليم .
أسراب الغزلان ،
تذبح في الواحات .
يا صوت بلال يعلق
فوق عناقيد النخل ،
ويطلع في الحراب القدسي ،
قذيفة ناز .
أسياد قريش سدوا أبواب الساحة ،
لكن .
مر محمد بالراية
إذ تسقط عيناك ،
على شرفة روجي
يموج العرش ،
وتتكشف الأسرار . .
ويجئ الفجر بحلة صوتك
أخضر ،

أزهرَ ،
نورانيَّ
وتزهو ثانيةً ،
في قممِ الوطنِ العربيِّ
وأعرفُ ،
أعرفُ ،
من سيهدمُ هذي الأسوارُ
يا آخرَ هذا الليلُ .

بانتظار القصف

دقَّتِ الصافرهُ . .
ستأتي الصواريخُ
منتصفُ الليلِ هذا
وبيتيَ كان على وشكِ النومِ
ألياسمينُ غفا
ألسرُّ كان سيغفو
على صوتها فزَّ سربُ الطيورِ
وسربُ الطفولةِ
فزَّتْ شوارعُ أمنةُ ،
وحقولُ .
وفزَّتْ . (لماذا . . ؟)
بأعينِ كلِّ المرايا
وفزَّتْ الحنينُ إلى نخلِ أهلي

لضربِ الرِّقابِ ،
وشدِّ الوثاقِ ،
لضربِ بلا فديةِ ،
فمتى تضعُ الحربُ أوزارَها
عشبُها في العيونِ ثوى ماؤهُ ،
عشبُها في ظهورِ الخيولِ .
حجراً ،
حجراً تنزفُ الأرضُ محنتَها
انتصروا أيها الوارثون ،
قفوهم ،
فههمُ مُحضرون . .
.....
دقَّتْ الصافرةُ .
هو الوقتُ لا ينقضي
يقطعُ الوقتُ أوردتي
والدقائقُ ليستُ تمرُّ
تعلَّقني فوق حبلٍ مدلى . .

تسائلُ :
من سيموتُ بأخرةِ الليلِ :
طفلي ،
أخي .
جارتِي ؟ .
يدُ من سوف تقطعُ في آخرِ الليلِ ،
أو ساقُه ؟ ،
جسمُ من ستَهشمُ ؟
تلك الصواريخُ ،
ترمقُنِي الشرفَةُ الحائِرةُ ..
تقولُ السجاجيدُ :
أخشى الحريقَ ،
يقولُ الجدارُ :
خذيْنِي ،
يلملمُ أركانَه البيتُ .
يهمسُ :
لا تفرعي من نزيْفِي ،

ويأتي إليّ الشجرُ . .
ويلقي بأشجانِه فوق صدري
يتمتمُ :
أكرهُهم ،
أكره الموتَ في مائهم
وتدورُ العصافيرُ حولَ النوافذِ ،
تُذبحُ حولَ النوافذِ
أه .

لماذا تخافُ العصافيرُ من قصفهم
العصافيرُ تريكُ غيظي ،
وتُردي دمي في الدروبِ إليك ،
الدروبُ تطيرُ بلا وجلٍ ،
يتلقفُها الليلُ ،
يلقي بها في سنابلٍ مقفلةٍ
ماءُ دجلةَ يهربُ من بابِ بيتي
ليسكنَ في سعفةٍ ،
وتدورُ الثعابينُ حولَ بساتينِه

أه . تسعى الثعابينُ
في روضِ رُوحِي .
وأصرخُ في حومةِ الليلِ ،
أصرخُ . لا .
لن يمروا .
تكسّرَ شباكُ بيتيَ ،
لكنّهم دُعروا من يقيني ،
تكسّرَ شباكُ بيتيَ ،
لكنّ وردَ عيوني
تناثرَ فوقِ الرياحِ التي عصفتُ بالغصونِ
وأسئلةُ الشامِ ،
أجوبةُ النيلِ ،
كانت تراوِدُ رُوحِي ،
حوارُ جريحٍ يحرّضُ نارَ جروحي
من الماءِ ،
للماءِ كان اللّهَبُ
يخضّبُ أرضَ العربِ .

ويصرخُ في وجههم :
أطلقوني .
ويزحفُ سرواً ،
ونخلاً ،
وطيرُ
ويركنُ حول شبابيكِ بيتي ،
ويرفضُ ،
يرفضُ موتي
فينفتحُ الماءُ عن زهرةٍ غاربه . .
وتدنو العصافيرُ ثانيةً ،
في الصباح .

أحزان الغضى

لا أريك الرضا
إن رمل الغضى غارقٌ بالدماء
ولألى ليل الغضى
أحببتُ أنبياءَ القبائلِ ،
والرملُ منكفئُ ،
جرحُه شقَّ درباً إلى البحرِ ،
طعنته رشقتُ وردةً في السماءِ ،
فخرتُ على الأرضِ ،
وانزرعتُ قبةً في العراءِ
*

لا أريك الرضا
دمعةً رفضتُ أن تسيلَ
فهبتُ حجارةً أرضِ الغضى

وانحنَتْ للظلالِ الصغيرةِ

بحرٌ ،

ونهرٌ

ودربٌ يضيغُ إلى القدسِ

دجلةٌ تنهضُ نخلاً ،

وحرباً ،

رذاذَ طبولٍ

يبوحُ بما كتَمَتْ

قَبَعَاتُ الزمانِ الخليغِ . .

*

لا أريكَ الرِّضا

فخوافي الوعودِ عروشُ كَبَتْ

وصهيلُ الغضى ،

غارَ في ذيلِ فاتنةٍ خلعتُ وجهَهَا

في الطريقِ إلى غابةِ النخلِ ،

هم سلبوها قلائدَهَا .

قطعوا ساعديها

على بهو شرفتها هبطت رايةً
وانحنت أرضٌ أغنيتي ،
واستفز الغزاة النشيدَ الأخير . .

*

الصواريخُ تهبطُ فوق عروشِ الزمانِ
فيجفلُ هدهدٌ رُوحِي
وينهضُ .
يبحثُ عن سبأ
عن ملوكٍ يسلمهم لخيولٍ
تفتشُ عن فارسٍ
وطلولٍ تبیعُ حجارتها
لمتأحفِ أفلَسَ حراسُها
ملكاتُ الزمانِ السعيدِ . .
يراوذنَ نجماً بعيداً . .
وعلى شرفِ الليلِ ،
يُتمننَ أوراذهنَّ
خبا التاجُ ،

مُلْكُ صبا
أه ينهضُ نهرُ الغضى
باحثاً عن يقينٍ جديدٍ ..

*

لا أريكَ الرضا
لا أريكَ الرضا
إنَّ رملَ الغضى مفعمٌ بالنشيدٍ ..
يستبدُّ بأدغاله
ويراودُ ومضاً بعيداً ..

موسيقى عراقية(*)

ليت الفتى حجرٌ
يا ليتني حجرٌ
ألتّم حين شظايا الدهرِ تنهمرُ
ألتّم حين تلوحُ الأرضُ
ساقيةً
شوهاً ،
ينشجُ في أطرافها الشجرُ ..
هل يعرفُ الشوقَ
إلاّ من يكابدهُ
ويعرفُ الجوعَ
إلاّ جائعٌ .. وعِرُّ
أو يعرفُ الجرحَ
إلاّ نازفٌ عبرتُ

على جراحه نارٌ
وقدّها حجرٌ
يبكي إذا انكسرتُ في بوحها المطرُ
فوتُ الحبيبِ الذي
أوجعته ظفرُ
في روعه ندمٌ ،
في صدره سقرُ
عرارُ رِيّا ،
وما في ربيعها سطورا
ودارميّة مذبوح بها الأثرُ
تبكي مدارجها .
والفجرُ معتكرُ
غيلانُ .
غيلانُ
هل يجدي الفتى حذرُ
إذ الصبا غضةُ
إذ عودها نصرُ

ينبو بها قدرُ
أعنةُ الليلِ محمولُ بها الخطرُ
في طيِّها وجعُ
في طيِّها نُكْرُ
يا ساريَ البرقِ
لا تسأله . ما الخبرُ
عاشتُ بنا النذرُ
والليلُ ينهمرُ
نَسْحُ الشباكِ التي في كفهٍ وَضْرُ
يا ساريَ البرقِ . .
تلك الخيلُ تنتظرُ
والنارُ في دمنِ المعطوبِ تنكسرُ
هل يكذبُ القمرُ . .
نعم .
ويخجلُ إذ .
تبكي على زنده الأثارُ ،
والصورُ .

يا ليتني حجرٌ ..

*

حبيبي .

على رَسَلِهِ .

كان قلبي يفتتُ أزهاره

وعلى رَسَلِهِ

كان يفتقُ أعينَ سربِ القطا

هل أعارَ القطا جنحه

هل تفيأُ سربُ القطا

نخلةً في العراق .

*

على مقعدٍ من يقينٍ

تستريحُ الحماماتُ

مطفئةً نارها

البرتقالُ يفجرُ أشجانه

في النوارِ الحزينِ ..

على مقعدٍ من شجونٍ ..

يستريحُ الفتى حجراً
يستريحُ غباراً
بأغنية ،
ظلَّ ينشدُها العابرون
على مقعدٍ من ظنون
تستريحُ الفتاةُ
على مقعدٍ من ورودِ الزمانِ
وينجرحُ الليلُ في دمها
ويدورُ المكانُ
ودجلةٌ تلقي بأدغالها
في الأمان . .
غريبين . .
صوتكَ كان الدثارَ الوحيدُ
غريبين كنا . .
العراقُ بعيدُ .
يُجرِّحُه في دمانا البغاةُ ،
المرابون كانوا يجرونه من دمانا

ونأسره في سوادِ العيونُ .
غريبين .
كلُّ الجبالِ تصليّ على جرحنا
والمرايا شهودُ .

*

على مقعدٍ من عبيرٍ
يموتُ النداءُ الأخيرُ
خانهُ الليلُ ،
والمخبرون الصغارُ
يجيئون من داخلِ النعمةِ الشاردةِ
يجيئون من نبضِ اغنيةِ شاهدةِ
يجيئون من ليلةٍ حاقدةٍ .
وتعدو خيولُ الصباحِ
على غيمنا المستباحِ
تجرُّ القوافلُ في دمننا قيدها
خطوةً ،
خطوةً

وتسيلُ غنائمُها
والسروجُ علامةً .
وجمرةٌ دمعي قِيامةً
وليلكةٌ تسألُ الشامَ
عن ومضةٍ في عيونِ البطاحِ
قالت الأرضُ :
لا تستفقُ يا هوايَ الأخيرُ
قلتُ :

كلُّ الزمانِ
صالحٌ للتشرُّدِ ،
كلُّ المكانِ .
صالحٌ للتَّوحدِ ،
كلُّ المدى .
صالحٌ للحُلمِ .
وكلُّ المواعيدِ شاحبةٌ
غير موعِدِ قلبي
ومقفرةٌ غير موعِدِ حبيبي

فلا تتعدّ .
أنّها اللحظة المستحيلّة
لكنني . .
لن أجيئ
لتبقى وحيداً
ويغمّر وجهك حزنٌ جديدٌ

*

أه لو الصدورُ تستطيعُ
أن تبوح .
بشهقة في الروح
أركضُ في عتامة الضباب
أحترقُ السحاب
وأضربُ التراب
بما جنتُ كفايَ من آثام .
عطركِ يا فراشة الربيعِ واحدة
وشهدكِ السراب
وجنحكِ اغتراب

نصحتُ حقلَ الوردِ في الخريفِ .
ألاً يحترقُ .

لكنكِ أحترقتِ ،
دعوتُ كلَّ النخلِ
ألاً يهجرَ الصحراءَ
واغتربتِ .

سيدتي .

في وجهكِ المغلوبُ
قافلةُ مسيبةُ

وقمرُ مسلوبُ

فأنصتِي للريحِ إنْ تبعثرتُ

واختبأتِ في السورِ

لن نحنيَ الرأسَ لدى مرورِها

قد وقعَ المحذورُ .

*

البحرُ يمتشقُ الزَبْدُ

والريحُ تشعلُ في السواحلِ

وردّها .
والأفقُ يعرفُ موعده
والجرحُ ربانُ الحريقِ
الى السواحلِ
أه ، من ربّانِ هذي المصيدهُ
الجرحُ لا يعطي لواعجه
ولا يعطي زنايقه
ولا باعِ المناديلَ التي نَزَفَتْ
على شُرْفِ الأماسي المترعهُ
والبحرُ تقطعهُ النميمةُ
والهزيمةُ
والشراكُ المغرضهُ . .
والبحرُ تقطعهُ الليالي . .
والبحرُ .
يالي من رجالي .
أرتديه مرّةً .
أو يرتديني

فيه أرقدُ مرّةً ،
وينامُ شوكاً في عيوني
من أين يأتي البحرُ ،
كيف يجئُ
يشعلني ضحىً
ولظاهُ يغمرني دجىً
طوراً أصدقه
وأطواراً يكذبني
وأهجره .
وأنكرُ في حديقته غصوني
يا أيها الوردُ الذي زرعَ
السفينَ دماً عصامياً
يسرُّ شعراً موج البحرِ
في الخلجانِ ،
قال البحرُ للأسماكِ :
كوني ،
لكنها رفضتُ .

فسالَ الفجرُ من جرحِ النّوافذِ
قالتُ الضفّةُ الأخيرةُ
جئتُ يا شجرَ الفصولِ
يا أيّها البحرُ الذي هجرَ الحقولُ
حجرُ أنا
احترقتُ أصابعَ عشبهِ في الجرفِ
فرّتُ من أضالعهِ الطيورُ
حجرُ أنا ،
انكفأتُ لواعجهُ ،
وخانتهِ الهواجرُ ،
والمهاجرُ ،
أيّها البحرُ العذولُ .
يا أيّها البحرُ ابتلغني
إذُ أتوقُ ،
وإذُ ألوبُ
وأذُ تمورُ النارُ في نبضِ الجدورُ
يا أيّها البحرُ الذي يُغري

رُخَامَ المَوْجِ بِي
أَطْلُقُ دِهَالِيَزَ الكَلَامِ
عَبَّيْ مَخَاوِفَهُ بِأَلْغَامِي .
وَلَا تَأْخُذْ إِلَيْهِ .
فَلْقِي ،
امْتَشِقْ لِعَتِي إِلَيْهِ ، رَهِينَةً
أَلْقِ المَسَاءَ عَلَيْهِ خِيْمَهُ
وَتَوَسَّدِ الصَّحْرَاءَ غِيْمَهُ
مَنْفَايَ فِي كَفِّيهِ خَلْفَ البَحْرِ ،
خَلْفَ ضَبَابِ أَعْنِيْتِي
وَفِي فَرْعِ العَيُونِ المَرْهَقَةِ . .
وَهُوَ العِرَاقُ ،
هُوَ العِرَاقُ
تَبَسَّمَتْ كَفَّاهُ ،
فِي وَجْعِ السَّنَابِلِ
وَهُوَ العِرَاقُ .
ضَحَكَتْ جَدَاوِلُهُ عَلَيَّ زَبْدِ

الضفافِ المالحهٗ ..
يا أيها المتوسطُ المخدولُ بالكذبِ
انتشلي من عيونِ الريحِ
خذُ شفتي
وأطلقني على كتفيه
جرحاً عابراً
واسجنْ عيونَ الريحِ فيَّ
إذا مضيتُ ..
يا أيها المتوسطُ الخمورُ
هذي النارُ
تشعلُ في عيونِ البرقِ
آخرَ زنبقهٗ ..
في أوجِ أغنيتي
ألودُ بماءِ صدركِ ،
بالغبارِ على خُطاكِ المرهقهٗ ..
يا أيها البحرُ الذي كسرَ المعابرَ
هل نعودُ إلى الحدودِ ..

نُلقي بصخرة صبرنا

عبر المدى

يا أيها البحرُ اللدودُ ..

ألقِ السلامَ عليَّ

واختصرِ الردى

*

ضاعوا بأخرة النهار

ضاعوا .

يلمُّ الغيمُ من دمهم .

شظايا .

والحبُّ للفقراءِ مأوى ..

لكنهم زرعوا الطريقَ إليه بالألغامِ

فانفجرتْ شظايا الروحِ

وارتدتِ الموائعُ حزنَها

وبقيتْ أرقبُ غيمَ وجهك

قالت الأغصانُ :

لن يأتي

وقالت غيمةٌ .
سيجيئُ
أولُ دربنا جرحُ
وأخرُ خطونا برقُ
وما بين الندى والجرحِ
سكينُ
وملحمةُ
نداؤك شمعةُ
لا تنظفي في القلبِ ،
رغمَ الريحِ ،
رغمَ أصابعِ الغيلانِ
يشهد فجرُكَ المصلوبُ
بين قبائلٍ جفتْ غنائمُها
وعافتها القوافلُ . .

.....

أيها الوردُ العراقيُّ المصانُ
يا أيها القمرُ المخضبُّ عنفوانُ .

ضاعوا .
وفي عينيَّ ،
تنبضُ من بقاياهم سنابلُ
ويلوبُ صمْتُكَ .
والحروفُ لها أناملُ .
نشوى ،
تلمُّ صفائري
فتفيضُ في الليلِ الجداولُ . .
يا أيها الوطنُ المكابرُ . .
أشْرِقُ .
فهذا الليلُ كافرٌ . .
أشْرِقُ .
فهذا الصدُّ كافرٌ .

*

حبيبي . .
لماذا الجسورُ تلمُّ معابرها
في الغروبِ

لماذا البلابلُ كانتُ تلوبُ

على كتفيكَ .

إذا الشيخُ غرَّدَ ،

أو هدَل العندليبُ . .

حبيبي .

لماذا إذا نامتِ الأرضُ

في عطرِها

أستفيقُ .

على نبضِ قلبِكَ

يوجعُ أغصانَ قلبي

ويشعلُ خيمته

فيلوبُ الزمانُ

وتنكفي الأرضُ

في زهرةٍ من دخانٍ . .

لماذا .

إذا ظلَّ النخلُ شرفةَ بيتي

يجيئني وجهُكَ :

قافلةً من عطورُ

وأرضاً تدورُ
وعاذلةً مُرَّةً
وغمامَ بُخورِ .
لماذا إذا غنَّتِ الأرضُ
أغنيةَ العائدينِ .
وكَلِّمتِ الأرضُ أشجارها
من حنينِ .
وماجَتْ جبالاً ،
وفاضتْ بحاراً
وسالتْ أنينِ .
قال هذا الفؤادُ :
مالها . . ؟ !

*

حبيبي .
لماذا تلمُّ المباحجُ فتنَّتها
إذْ تغيبُ
ويشطرُّني الشوقُ
ألفَ امرأةٍ .

تسائلُ .

عطرُكَ هذا .

أم الليلُ يُرخي لقلبي العنانُ

ويفتحُ نافذتي . .

فأضيقُ على سفنٍ من حنانُ .

أعطرُكَ هذا

أم الياسمينُ الذي اغتالَ نجداً

واسقطَها في الرّهانُ .

*

لم يكن من خيارٍ . .

عراقيةً كانتِ السعفةُ الشاردهُ . .

عراقيةً كانتِ الريحُ

واللاعجهُ

فسلامٌ على الأرضِ في وجدِها

وسلامٌ على وترٍ لا ينامُ .

(*) موسيقى عربية ، قصيدة للشاعر محمود درويش في ديوانه : حصار لمذائح

البحر ، والبيت القديم :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

للشاعر المخضرم تميم بن مقبل

قصيدة بابل

من بابلٍ تتصاعدُ الألواحُ
نحو قيامةِ الموتِ المجيدِ . .
من بابلٍ ترقى الحجارةُ
نحو تاجِ الأفقِ
عبرَ سواعدِ النخلِ العتيذِ . .
من بابلٍ بدأ الخليلُ ،
وخطَّ في سفرِ الحقائقِ :
فاعلُنْ ، متفاعلُنْ
ورمى الرِّقائِقَ ،
والحرائِقَ
والرُّقى .
فليبدأ العزفُ العظيمُ .
هذا الضلالُ نشيدُنَا نحو الهدى

هذا الضلالُ المستحيلُ ..

*

من بابلٍ بدأ النشيدُ

إلى المدى

شَرَقَتْ عيونُ الأرضِ ،

ماءُ الخلقِ يكتُمُ

ما تنمُّ به الإشارةُ للغصونُ ..

ولبرتقالِ الرملِ ،

وهو يظللُ العشبَ الحزينَ ..

هذا أوانُ الرقصِ

هل خَبَتْ الشموعُ ،

وهل تكسرتِ المرايا .

زمرُّ . سبايا

يتسكَّعُ التاريخُ في دمِها

فتعلنُ سرَّها

زمرّاً ، سبايا ..

هذا أوانُ الرقصِ

هاتِ يديكَ ،
خبِيّ دمعَتِي ،
في عتمةِ الليلِ الذي يجثو
على كتفيّ معطفُهُ ،
فترديني قلائدُهُ ،
وتُدمني أساورَهُ
وأبحثُ عن يديكَ
تلمُّ عن خصري القناديلَ الكذوبةَ ،
وانطفاءَ الأشرعةَ . .
وأنا أخبِيّ صرختي في الريحِ
ما بين المكيدةِ ،
والغيومِ المطفأةِ .
هل كنتَ قربي في المساءِ . .
خبّأتُ وجهكَ في شراعي
واختبأتُ بغصنِ زيتونٍ
على عينيكَ يومضُ بالوداعِ . .
هل كنتَ قربي في المساءِ .

كان المساءُ مداجياً
بحراً ،
وصحراءً
ودغلاً خائفاً ،
قمرأً يبيعُ كرومه
وعباءةً حمراءَ
كان الليلُ يرقدُ في عيونِ الريحِ ،
يصعدُ في سفينِ الموجِ ،
يهبطُ للجدورِ . .
بغدادُ ترقدُ في الندورِ . .
والبحرُ يقتلعُ العواصفَ
من خرابِ عمامةٍ نزلتُ طويلاً
ثم نامتُ تحت أعمدةِ المعابرِ
وابتهالاتِ الجسورِ . .
كفائيَ عصفورانِ مذبوحانِ
والأنهارُ ذابلةٌ
ودجلةٌ تشعلُ النيرانَ

في الليل الذي اغتالوه ،
تجمع ما تساقط من تقاويم النجوم ..
كسفاً ..
وغصن في دمي يدعوك ،
لا ترحل .
غبارك في دمي
يُغري الزنابق بالحريق ..
ويعيدني صوب الينابيع القديمة
والمرافئ ،
صوب أسئلة اللغات المرهقة ..
هذا الدوار .
وجع يراودني ،
وأعرفه
يراودني ،
وأهرب
ثم يشتعل المدار ..
صدت طيور البحر ،

واختنقَ المدى ..
يا أيها الليلُ الذي اختصرَ الردى
كنْ ساعدي ،
لأصيرَ ليلكةً تراوِدُ حاصداً ..
وأصدِّ مملكةً تفتّشُ عن غزاةً ..
هربَ الحداةً .. ،
هربتَ مقاليدُ المباحِجِ ،
والمناهجِ
واستفزَّ السجنُ سجانيه
يا قمرَ الصحارى ..
هربتَ معاييرُ المناهجِ ،
في الصواريخِ التي
خجلتُ من العشبِ البريءِ ..
ومن جراحاتِ الندى ..
من غربِ بحركٍ للمنافي
تطلعُ الأصدافُ جائعةً
وفارغةَ العيونِ ..

يا أيها البحرُ الخؤونُ . .
خُذني بأطرافِ السنابلِ
كي أفضَّ السرَّ ،
في الوهمِ الكبيرِ . .
ولكي أصيرَ مظلةً ،
وشجيرةً ،
ولكي أطرِّ ما تبوحُ به الجفونُ
إلى الوسائدِ ،
أيها البحرُ العذولُ . .
ها أنتِ تبعثُ من أساطيرِ الحرائقِ ،
من عروقِ خرافةٍ عزلاءَ ،
تقتحمُ النخيلُ . .
ماذا أقولُ .
وأنا سرقْتُكَ من عيونِ الوردِ
من حجرٍ يلوبُ
ومن جراحاتِ الغيومِ . .
من شهقةِ الأنهارِ

وهي تراودُ الغاباتِ
عن أسرارِها
عَمَّا يَبُوحُ به شجى المرجانِ
في أدغالِها ،
من وجدِ مكةَ ،
إذ تنامُ على النياقِ ،
وتشربُ الصحراءَ إن عطشتُ
وتقتاتُ الدخانُ .
والحورُ لا يأتينَ ،
والأنهارُ لا تجري
ولا ولدانَ حولَ الشربِ ،
لا كافورَ ،
لا سرراً
ورملُ الروحِ منكفىءٌ يلوبُ ،
ولا مضاربَ ،
لا مواسمَ . .
وأنا سرقْتُكَ من دم الغزلانِ

يقتُلها الضما
وردٌ .. همى
ثمرٌ يشاكسُ دورةَ الأبراجِ
جرحُ الطينِ مسفوحٌ ،
على صدرِ البوادي ..
ماذا أقولُ .
وطلقةٌ ولهى
ومفردةٌ عصيةٌ ..
ترتدُّ نحوي
كلّما دهم الغزاة الليلَ
أو في البرقِ ،
هاجَ الأرجوانُ ..
من أين ياتيكَ الأفولُ
وأنتَ أغريتَ الزمانُ ..
وسجنته في مقلتي .
فأشعلَ الزبرَ القديمةَ
والمعابرَ ،

والقوافلَ ،
والفصولُ ..
يا أيها الشجرُ النبيلُ ..
خُذْ شرفتي
وانشرْ على دَمِها الغمامَ
وعَلِّمِ الخيلَ الجموحةَ
أَنْ تَتَوَبَّ إِلَى أَعْتَتِهَا
وتشربَ دَمَعَهَا
من ألفِ عامٍ
ترقصُ الأضواءُ ،
والألوانُ ،
والاقداحُ ،
من توقِ الخيولِ إلى الرَّحِيلِ ..
بغدادُ تطلُعُ
من قيامتِها
لتدخلَ من جديدٍ ..
عمرًا يراهنُ شرفةَ التاريخِ

ترحلُ في أناسيدِ الفصولِ ..
فجرأً كحيلاً ،
نبعةً .
شجرأً بليلاً ..

